الخازن علاء الدين

أعـلام التفسيـر

الخازن علاء الدين أو الحسن
صاحب تفسير: لباب التأويل في معانى التنزيل

الخازن هو علاء الدين، أبو الحسن، علىّ بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحى . البغدادى، الشافعى، الصوفى، المعروف بالخازن . اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق. ولُد ببغداد سنة 678 هـ (ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة)، وسمع بها من ابن الدوليبى، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر، واشتغل بالعلم كثيراً. قال ابن قاضى شهبة: " كان من أهل العلم، جمع وألَّف، وحدَّث ببعض مصنفاته ". وقد خَلَّف رحمه الله كتباً جمَّة في فنون مختلفة، فمن ذلك : لُبَاب التأويل في معانى التنزيل، وهو التفسير الذي نريد الكلام عنه، وشرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسندى الشافعى وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطنى، ورتَّبه على الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطوَّلة، وكان رحمه الله صوفياً حسن السمت بشوش الوجه، كثير التودد للناس. توفى سنة 741 هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوى، وضم إلى ذلك ما نقله ولخّصه من تفاسير من تقدَّم عليه، وليس له فيه - كما يقول - سوى النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما، مَعْنِىٌّ بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلى الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح، والعقل السليم،

وأرى أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه في مقدمة تفسيره، مبيّناً به طريقته التي سلكها، ومنهجه الذي نهجه فيه، وفيها غِنى عن كل شئ.

قال رحمه الله تعالى: ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذي صنَّفه الشيخ الجليل، والحَبْر النبيل، الإمام العالم محيى السُّنَّة، قدوة الأُمة، وإمام الأئمة، مفتى الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى - قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه - مِن أجَلِّ المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها. جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشُبه والتصحيف والتبديل، محلىّ بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشىً بالقَصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مُرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مُفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مُصنِّفه وأجزل ثوابه. وجعل الجنة متقلبه ومآبه.

لما كان هذا كتاب كما وصفتُ، أحببتُ أن أنتخب من غُرَرِ فوائده، ودُرَرِ فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعانى التفسير، ولُباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخَّصتها من كتب التفسير المصنَّفة، في سائر علومه المؤلَّفة، ولم أجعل لنفسى تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفتُ منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد، فما أوردتُ فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، على تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يُطلب بيانه من السُّنَّة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوتُه إلى مخرجه، وبيَّنتُ اسم ناقله، وجعلتُ عوض كل اسم حرفاً يُعرف به، ليهون على الطالب طلبه. فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر الصحابى الراوى للحديث (خ). وما كان من صحيح أبى الحسين

مسلم ابن الحجاج النيسابورى فعلامته (م). وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق). وما كان من كتب السنن، كسنن أبى داود، والترمذى، والنسائى فإنى أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسند له انفرد به. قلت: روى البغوى بسنده، وما رواه البغوى بإسناد الثعلبى قلت: روى البغوى بإسناد الثعلبى. وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده، فإنى اجتهدت في تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، ثم إنى عوَّضتُ عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به. ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب، وأسهل على الطُلاب، وسقته بأبلغ ما قدرتُ عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. وينبغى لكل مؤلف كتاباً في فن قد سُبق إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شيء إن كان معضلاً. أو جمعه إن كان متفرقاً. أو شرحه إن كان غامضاً. أو حُسْن نظم وتأليف. أو إسقاط حشو وتطويل، وأرجو ألاَّ يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت. وسمَّيته: " لُباب التأويل في معانى التنزيل ".

ثم قدَّم الخازن لتفسيره بخمسة فصول:

الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه.

الفصل الثاني: في وعيد مَن قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده.

الفصل الثالث: في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل على سبعة أحرف.

الفصل الرابع: في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك.

الفصل الخامس: في معنى التفسير والتأويل. ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

توسعه في ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت في هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع في ذكر القصص الإسرائيلى وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعنى بهذه الناحية كتفسير الثعلبى وغيره، وهو في الغالب لا يُعقِّب على ما يذكر من القصص الإسرائيلى، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضيع لا يترك القصة تمر بدون أن يُبَيّن لنا ضعفها أو كذبها، ولكن على ندرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: {وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢١ - ٢٤]، نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذي تمثَّل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحاها من الدُّر والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجليه وألهته عن صلاته، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قُتِل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فُتِنَ بها وشُغِفَ بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة، ولكنه يأتى بعد كل هذا فيقول: " فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به ويُنسب إليه " ويُفَنِّد في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبى الله داود عليه السلام.

ولكنَّا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يُعقِّب عليها، مع أن بعضها غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوَّة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ } [الكهف: ١٠].. الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهى غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يُعَقِّب عليها بلفظ واحد.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ } [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].. نراه يروى في حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جداً عن وَهب ابن منبَّه، وهى مما لا يكاد يقرها الشرع أو يُصدِّقها العقل، لما فيها من المنافاة لمقام النبوَّة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يُعَقِّب عليها بأية كلمة.

عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت على عهد النبى ﷺ وأشار إليها القرآن. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾} [الأحزاب: ٩] نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول : " ذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب " ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾} [الأحزاب: ٢٧].. نراه يستطرد إلى ذكر غزوة بنى قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

عنايته بالناحية الفقهية:

كذلك نجد هذا التفسير يعنى جد العناية بالناحية الفقهية، فإذا تكلَّم عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلَّتهم، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسِّر بوصف كونه مفسِّراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: { لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ } [البقرة: ٢٢٦]، نراه بعد أن ينتهى من التفسير يقول: " فروع تتعلق بحكم الآية " ثم يذكر خمسة فروع - الفرع الأول: في حكم ما إذا حف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر، والثانى: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، والثالث : في حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، والرابع: في مدة الإيلاء في حق الحر والعبد واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس : فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفَّارة أو لا تجب؟.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: { وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ } [البقرة: ٢٢٨].. الآية، نراه يعرض لمذاهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضي به عِدَّة الحائض.. ثم يقول: " فصل في أحكام العِدَّة، وفيه مسائل " فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولى منها: عن عِدَّة الحوامل، وفي الثانية: عن عِدَّة المتوفى عنها زوجها، وفي الثالثة: عن عِدَّة المطلّقة المدخول بها، وفي الرابعة: عن عِدَّة الإماء..

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ } [البقرة: ٢٢٩].. الآية، نجده يقول: " فصل في حكم الخُلْع، وفيه مسائل " ويذكر ثَلاث مسائل؛ المسألة الأولى: فيما يُباح

من أجله الخُلْع، والثانية : في جواز الخُلْع بأكثر مما أعطاها وعدم جوازه، الثالثة: في اختلاف العلماء في الخُلْع هل هو فسخ أو طلاق؟

ومثلاً عند تفسيره لآية الظَهَار التي في أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلاً في أحكام الكفَّارة، وما يتعلق بالظَهَار، ويورد فيه ثمانى مسائل لا نطيل بذكرها.

عنايته بالمواعظ:

ثم إنَّ هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعه الخازن الصوفية هى التي أثَّرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ } [السجدة: ١٦].. الآية؛ نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير : " فصل في فضل قيام الليل والحث عليه ".. ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى. وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواح من العلم مختلفة. ولكن شُهْرته القَصصية، وسُمْعه الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعديل عليه!!. ولعل الله يهيئ لهذا الكتاب مَنْ يعلق عليه بتعليقات توضح غَثَّهُ مِن سَمِينه، وتستخلص صحيحه مِنْ سقيمه. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس، خصوصاً مَنْ له شغف بالقصص وولوع بالأخبار [1].

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، 4 / 59 - 61.